

13 دعوة القول الطيب

منظر جميل في كل بلد؛ منظر أولئك البسطاء المتواضعين من أهل الأرياف والقرى حين يجتمعون يوما في الأسبوع يقيمون سوقهم فيما بينهم، فيتبادلون إنتاجهم مقايضة، ويبيعون للغريب ما جمعه جملته، بلا ميزان مدقق أو حساب طويل، يننون تعاملهم ويوعهم على النيات البيضاء، والحياء، والقناعة، وأسس الكرم، وشكر الله على ما يمنحهم من رزق، حتى أن أحدهم ليذهب من سوقه ليبذر بذره، فيقول مع كل حفنة حبوب ينثرها على أرضه: للطير وما قسم الله، يرى للطير حقا في كرمه.

لكن التعقيد والتدقيق إنما يكون في أسواق المدن، ونيات التطفيف تجدها عند كثير ممن يبيع أو يشتري من أهلها، يريد البائع أعلى ربح، ويريد المشتري أرخص ثمن، ولذلك احتاجوا إلى الموازين واعتبروها حكما بينهم، وباتت تبعد شبهة التطفيف والمخادعة عن الطرفين، فلا تبقي أحدهما قلقا، كما أصبحت تمنع شهوة التطفيف بعد ذاك، فلا يستطيع أحدهما التحايل، خوفا أن يفضحه الميزان.

وأنوار الفطنة هذه التي لا زلنا نمشي في أضوائها إنما هي موازين أيضا، ترد الشبهات وتجليها، وتبرد الشهوات وتسكنها إذا لف التعقيد مجتمع الدعاة، واستعرت الفتن أو اقترب ظلامها، ولذلك كان ابن تيمية كثيرا ما يصف المؤمن بأنه صاحب "بصر نافذ عند ورود الشبهات، وعقل كامل عند حلول الشهوات"، وركز على وجوب غلق هذين البابين اللذين تقتحم الفتن منهما حصن الجماعات: الشبهات والشهوات.

لكن، لو تعامل الدعوة بالنيات، والقناعة، والتواضع، والشكر على نعمة الإسلام والانتساب للدعوة، لو هبهم الله صواب الخطو بلا تكلف، ولما احتاجوا إلى ميزان وتدقيق، ولغشيتهم السكينة التي ينام أهل الأرياف في ظلها، غير أن فيهم نفرًا يطففون.

حقيقة يجب أن نعترف بها.

لقد تعقدنا بعض التعقيد، وتركنا سمت البساطة، ومازج التكلف طبيعتنا المناسبة المنسرحة الهيئة اللينة التي أودعها الرعيل الرائد فينا، ولا بد من علاج بمتابعة طلب هذه الموازين الأنوار.

شبهة معترضة

ولقد وصف النور التاسع بأنه ساطع، لما للمسارة في نصيحة القادة من بريق لامع يحرم الفتن من يبتتها الطبيعية التي تتوالد فيها، ولكن ربما ظن داعية أن المسارة في النصيحة تنافي طبائع الإسلام وسمته في الحث على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ورأى في إنكار المرأة على عمر رضي الله عنه في المسجد جهازًا دليلاً ينفي نورانية المسارة.

والأمر ليس كذلك عند من عرف مقاصدنا، إذ لو افترضنا صحة قصة إنكار هذه المرأة على عمر -التي يضعفها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني- وفحصنا فحواها، لما وجدنا لها علاقة بسياسة أو عقيدة أو موقف عام جماعي، وإنما تتناول أمر مهوور الزوجات، أو أمر توزيع بعض العطايا على من له حق في بيت المال، في قصة أخرى تروى، فضلًا عن أن العامي المجهول الذي اعترض أو المرأة المجهولة، لا يصلح عملهما أن يناهض الأدب الذي اختاره سعد بن أبي وقاص أو أسامة، وهما على ما يعرف عنهما

من الفقه والتجربة، ولا أن يكون مصدرًا لأصول الدعوة وابن حجر يفتيك بعد ابن عكيم بوجود الإسرار عند خوف المفسدة.

إن نصيحة قادة العدل الذين يتحرون السير على موجب فقه الراشدين غير مواقف العلماء الجريئة في الإنكار على الظلمة والمبتدعة، وإنما ندعو نحن إلى مسارة لا في مثل هذه الأمور التي يحتاجها الناس في أمر معاشهم اليومي، بل فيما يتعلق بسياسة الجماعة الداخلية والخارجية ومواقفها العامة، وفي أيام الفتنة خاصة، خوفاً من استغلال أصحاب الأغراض للنقد المعلن، أو اغترار المخلصين السذج وأصحاب التجربة القليلة بظاهرة، إذ تصبح النصيحة في موطن يوجد فيه مثل هؤلاء مترددة بين مصلحتين: مصلحة علانية النقد، ومصلحة عدم إتاحة فرصة لاستغلال المغرض أو لاغترار الساذج به. وبين ضررين: ضرر الاقتصار على إسماع النصيحة لنفر قليل فقط، وضرر الاستغلال والاغترار، فيعمل بالقاعدة الفقهية العامة في دفع أعظم المفسدين باحتمال أدناهما، وجلب أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وهي قاعدة أجمع الفقهاء على اعتبارها وقرها العقل، وتوجبها التجارب الوافرة في تاريخ الإسلام القديم والحديث.

بل، وإن عمر رضي الله عنه قد أسرع هو نفسه قبل غيره إلى الامتناع عن بحث الأمور العامة أمام الجمهور الواسع الذي قد يضم المغرضين والسذج، واقتصر على إسماع من يظن فيه الفقه والنبل فحسب، وذلك حين أراد أن يقوم في مكة أيام موسم الحج خطيباً ليفند لغطاً لغط به بعض الجهال حول بيعة أبي بكر رضي الله عنه وأحداث يوم السقيفة، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(يا أمير المؤمنين: لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاك الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وألا يعوها، وألا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشرف الناس، فتقول ما قلت متمكناً، فيعي أهل العلم مقالاتك، ويضعونها على موضعها.

فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقوم من بذلك أول مقام أقومه بالمدينة^(١).

فها قد تضافر لدليلنا من جديد: رأي ابن عوف، وفعل عمر، **هكذا نعلم**.

وهكذا الداعية: لا يضع كلامه إلا عند من هو أهل لوعيه، وليعتبر بما رأينا في الفتن، فإنها تكون أول ما تكون خفيفة، ثم يتلقف أصحاب شهوة الرئاسة نقد الثقات، ويزيدون فيه عشرة أمثاله، فيكون هدمًا.

إن الداعية الفطن الكيس إن كان عنده قول يرى أن لا بد من قوله لغير قادته فإنها يقوله لأهل الفقه من الدعاة وأشرفهم الذين تأدبوا بأداب السنة طويلاً، ويسارر به، لا يوزعه هاهنا وهاهنا.

يسارر، أو يتحرى الحلاء النبلاء العقلاء القدماء، أصحاب الأقدام المنظورة الماثورة، ثم يسرع بعد أن ألقى التبعة نحو:

النور العاشر، وهو: الإقلال من الكلام

فإنما يسألك الله عن فصاحة قلبك لا فصاحة لسانك، ولا شك أنها مسألة نسبية مسألة اللسان، فليس أحسن وأبلغ من سكوت إذا كثرت اللغات، ولا أجمل من كلام الناصح الأمر بالمعروف إذا أصلح.

فالمؤمن:

(يحسبه الجاهل صميتا عيبا، وحكمته أصمته، ويحسبه الأحمق مهذارا،
والنصيحة لله أنطقته).

وهو ذاك النموذج الذي رآه الشاعر:

ضحوك السن: إن نطقوا بخير وعند الشر مطراق عبوس
تكلم وسدد ما استطعت فإنها كلامك حي والسكوت جماد
فإن لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

وهذا هو عين الصلاح الذي أراه الصالحون لكل لسان، فمن صلح
لسانه عندهم، أي نطق بالخير وسكت حين الفتن: صلح عمله كله، وفي
ذلك كان التابعي يونس بن عبيد يقول:

(خصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما: أمر صلاته، ولسانه).

ثم زاد فقال:

(ما صلح لسان أحد إلا وصلح سائر عمله) فهو المفتاح المبارك، ولود
الخيرات، من أصلحه فتحت فيه البصائر، وهجر الكبائر والصغائر.

الكلمة الطيبة ترفع درجات

ولذلك كثير كلام رسول الله ﷺ في بيان أهمية اللسان، وجعل سكوته
في موطن الشبهة ترجمة الإيثار، فقال:

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرا أو ليصمت) وفي لفظ:
(أو ليسكت) ^(١).

(١) صحيح البخاري ١٢٥/٨، صحيح مسلم ٥/١.

فقول الخير من الإيمان، حتى أن الكلمة الواحدة لترفع صاحبها درجات، كما في قول النبي ﷺ:

(إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات)^(١).

ومن أجل ذلك رغب في هذه الكلمات الخيرة، فقال: (أطيعوا الكلام)^(٢).

يدلهم على باب الدرجات، وسلم العلو، إذ ليس أروع من كلمة حق منك، أو إصلاح، حين يفتتن لسان غيرك:

فإن عجز المرء: فإنه السكوت، إذ ربما تبدل الكلمة الواحدة ميزانه فيردى، كما قال النبي ﷺ:

(إن العبد ليتكلم الكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم)^(٣).

والميزان في هذا، هنا في الأقوال كما في الأعمال، هو قول رسول الله ﷺ:

(إذا حاك في نفسك شيء فدهه)^(٤).

فإن (أكثر خطايا ابن آدم في لسانه)^(٥).

فلينظر داعية نفسه، وليرفق بها، وليلزم الجمل المفيدة، وحروف البناء، وليطب كلامه، يكون طيباً، فإن نصف التربية قول موجه، وليدع حرفاً

(١) صحيح البخاري ٨/١٢٥.

(٢) صحيح الجامع الصغير للألباني ١/٣٤٠.

(٣) صحيح البخاري ٨/١٢٥.

(٤) صحيح الجامع الصغير ١/١٩١.

(٥) صحيح الجامع الصغير ١/٣٨٥.

حاك في الصدر، فإن الشيطان يؤز، يحرف النفس إلى طلب انتصار وغلبة، فتكون الخوذة، والتهمة المتسرعة، والنبرة. أو يشجعها على طلب سلامة ودعة، فتكون حروف اللين.

والطريق الأقرب لهذا الرفق الطيب: أن يتشبه الداعية بعلي بن أبي طالب عليه السلام، ويقلده لتشمله دعوة النبي ﷺ حين دعا له فقال:
(اللهم اهد قلبه وثبت لسانه) ^(١).

فلم يتقلب لسان علي.

فانظر: لم يكتف حتى ذكر اللسان، وبين أن ثبات اللسان قرين هداية القلب أو نتائجها!

وإلا، فإن لنا حين نرى لساناً قلقاً لاحناً أن نتهم القلب الذي تحته بعدم استكمال الهداية، وأنه بحاجة إلى الواعظ الناصح الذي يعلمه الفصاحة في الحق، ويدق له وتدا يثبتته في تيارات الأهواء.

وإنما هو نموذج دعاء حفظه الرواة فرووه لك، تعليماً للغة الدعاء وتلقيناً، كي تقول لأخيك يوم ترى بواد الفتن: (اللهم اهد قلبه وثبت لسانه).

تقوها بعد قولك:

(اللهم اغفر لي، ولأخي هذا).

معاً، مرة بعد مرة، كلما لقيته.

صواب القول من صواب العمل

وبهذا تكون قد أديت واجبك، وأحسنْتَ أجمل الإحسان الأخوي.
أما فقه الدعوة، فمن واجبه أن يستمر في عرض غرر النصائح، لعل
حريصاً ينتفع، أو جريئاً يتأني، ليتأمل وصية أبي بكر الصديق رحمته الله إذ يقول
له:

(أقلل من الكلام، فإنما لك ما وعي عنك) ^(١).

أو وصية عمر الفاروق رحمته الله إذ يترحم فيقول: (رحم الله امرأ أمسك
فضل القول، وقدم فضل العمل) ^(٢).

أو وصية أبي الدرداء رحمته الله لما ذهب في الصراحة لأبعد منها فقال:
(أنصف أذنك من فيك، فإنما جعل لك أذنان اثنتان وفم واحد، لتسمع
أكثر مما تقول) ^(٣).

تلك وصاياهم.

كانوا جيل جهاد وبناء، ربته المعاناة والممارسة، وصقلته الشدائد،
وعرفوا من خلالها قدرة البذل الصامت على تناوش الغيات، فخافوا أن
يقطع هذر ما نصرهم المسترسل في سيره.

إن اللغو شين كله، وضرره أيام التمكين ليس أقل من ضرره أيام المحن.
وعلى دعاة الإسلام أن ينطلقوا اليوم من هذه الحقيقة، فينطقوا فيما بينهم
بالخير الواسع، والمعنى الكبير، والفقه المفيد، في عبارة ضيقة المبني موجزة،

(١) عيون الأخبار ١/ ١٠٩.

(٢) عيون الأخبار ١/ ٣٣٠.

(٣) عيون الأخبار ١/ ١٧٧.

فإن الإكثار مظنة الخطأ، من غيبة، أو تهمة بريء، أو اضطراب لاستعمال دليل ضعيف، ومن وجد في نفسه بقية شوق إلى تحريك اللسان فدون القرآن، ومزيد التسبيح والحمد. ودونه مجالس الواهين والدينويين، يصدع فيها بحق الإسلام ما شاء.

نمط تربوي لا بد منه لجيلنا، كي تنهياً الجوارح لفضل فائض من العمل بمثله أمارات عمل الفتن في جيله، فانبغت له الفتوح. وفتحنا المنتظر رهن بطريقة عمر.

هذا، أو الترددي المعاكس الذي لا يقف، بل يستمر نازلاً هاوياً، فإن القول والعمل مرتبطان، فإن أخطأت العمل: احتاجت نفسك إلى ستر الخطأ بخطأ من القول آخر زوراً. ذلك ما لاحظته أحد الصالحين فقال:

(لن يضيع امرؤ صواب القول حتى يضيع صواب العمل)^(١).

هكذا، في متوالية رديئة، تقدم ستر الفضيحة على قول الحقيقة، والتسويق المدلس على التوبة والاعتذار، في ظن بعيد من الانتصار يراه قريباً، واللعن يبتك حجاباً.

وذهب الصمت عرفاً!

وكان نتاج ذاك الحرص الراشد على الصمت الفعال فوجاً آخر من التابعين يترادفون على درب العمل ويجددون النصح التربوي بإقلال الكلام.

منهم التابعي المهلب بن أبي صفرة الأزدي حين يقول:

(يعجبني أن أرى عقل الرجل الكريم زائداً على لسانه)^(٢).

كلمة تستوي في ظاهرها مع ما نسمع من طرف لسان أكثر الوعاظ، لكنها عند من يعرف المهلب قائداً متحمساً لقتال الخوارج تمثل حساسية روح وخزها شذوذ الخوارج عن إجماع المسلمين، ولذعة قلب كواه تفاصحهم وتبجحهم الزائد إزاء عقل يناديهم باجتماع تتمكن معه جيوش الإسلام من مواصلة الزحف على معاقل الكفر بدل تطاحن داخلي بين طرفين كلاهما موحد.

* ثم عمر بن عبد العزيز الذي يقول:

(من عد كلامه من عمله قل كلامه) ^(١).

يذكرك، لعلك نسيت، أنك تحاسب على الكلام حساباً مثل الذي على عمل الجوارح.

وانظر الترابط بين مشاهدته الواضحة لهذه الحقيقة، وبين رشد وعدله وطبيعة حكمه الفذة.

حتى إن المطالع لكتب المواعظ ليكاد يرى تواطؤاً بينه وبين أساتذة التربية الذين عضدوه على إقرار الإقلال من الكلام خطأ تربوية للمجتمع، ومن أبرز هؤلاء: الحسن البصري، وميمون بن مهران، وعبيد بن عبد الله ابن عتبة، وبقية فقهاء المدينة.

* ونقلة قريبة إلى الجيل الذي بعدهم ترينا استمرار هذا السمت عند الثقات، ففي مراثية المحدث الثقة محمد بن كناسة الكوفي لخاله الزاهد

المشهور إبراهيم بن أدهم إشادة بهذا الخلق وبيان تكامله مع الصفات الإيمانية الأخرى وارتباطه بها، فيقول:

زهود يرى الدنيا صغيراً عظيماً وفي حق الله فيها معظماً
وأكثر ما تلقاه في القوم صامتاً فإن قال بذكر القائلين وأحكاماً
فاستصغار الدنيا، والوفاء، لا يبدو جهالهما الكامل إلا إذا اقترنا
بصمت.

* ثم أستاذ الزهد في الجيل التالي: بشر بن الحارث الحافي، عضيد أحمد
ابن حنبل.
قالوا:

(ما أخرجت بغداد أتم عقلاً، ولا أحفظ للسانه من بشر) ^(١).

فأبانوا - من وجه آخر - ارتباط حفظ اللسان بالعقل، فهو قد حفظ
لسانه من اللغو، فوهبه الله لساناً جريئاً في موقف صدق إزاء أمير خدعته
البدعة، فكان يجوب شوارع بغداد يوم تعذيب الإمام أحمد. ينتصر له،
ويثبت الناس ويقود جمهور محبيه المتكتل أمام قصر المعتصم.
وهذا اللسان - لعمر الله - هو اللسان الذي يجب أن يحرص عليه
الدعاة، وبه يفخرون.

لسان اللهج بحديث في مسند أحمد، والترويج لعقيدة أحمد، وقيادة من
يقتفي طريقة أحمد وطرق من سبق أحمد ومن خلفه من أئمة الفقه والفضل،
لا لسان التشييط والتخذيل.

ورحم الله داعية أمسك فضل القول، وقدم فضل العمل.

كلمة قالها عمر..

ولم نبتدعها نحن.

* * *

14 خير يعاف الصاخبين

بذل لذيذ، ونصر يتوالى.

عنوان صادق للسنوات الأخيرة من عهد رسول الله ﷺ عكس طابعه الكامل على المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم، فتركهم يتقلبون في أنواع من الفرح غامرة، يستشعرون حمدا من أحكام الفروض والمندوبات والحرام والمكروهات ينزل به جبريل عليه السلام من السماء كل يوم، أو ينطق به النبي ﷺ فينحسر مع كل نزول ونطق خلق من الجاهلية بشع، ويكتب عليه الجلاء ويزاح، ليتاح لهم مجال أن يسألوا عن مكملات الخير الذي هم فيه.

إلا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، كان لا يقنع، فما أن يشارك إخوته من الصحابة فرحهم هذا حتى تلذع ابتسامة قلبه تخوفات من احتمالات شر مبهم يراه مقبلا، يجهل صفته وعلامته، فيظل وجلا، حتى ينعت رسول الله ﷺ ويذكر له بواده ومقدمات التي ستنبهه يوما ما إلى الاحتياط ورفع صوته بأذان التحذير.

كان يريد علما يكمل علم الخير، فصار يحرص على أن يخلو برسول الله ﷺ يسأله:

يقول حذيفة:

(كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني) ^(١).

فأتقن علم الشر بهذا الحرص، وأحاط خبراً بما سيكون من فتن وسوء ونفاق، حتى احتاج إلى علمه كبار الصحابة، ووفق مثل عمر رضي الله عنه يسأله ويستشير.

والمغزى الأكبر هنا يكمن في استجابة رسول الله ﷺ لحذيفة، وجوابه له، وقبوله تعليمه علم الشر.

لم يقل له: إننا في خير، ونسير من نصر إلى نصر، فاصرف عنك الهواجس، بل أجابه وأعلمه.

وإنما تستمد نحن مسوغات تطرق بحوث فقه الدعوة لعلم الفتن والقواصم، وما ينجي منها من الأنوار والعواصم، من مواطأة النبي ﷺ لحذيفة وتزويده له بما أراد.

نتعلم علم الشر كي نراه ونميزه قبل أن يغزونا.

ففي الزمن النبوي الكريم لم تكن هناك فتنة عارمة غير فتنة النفاق التي تتابعت آيات القرآن تجزم أنها غير ضارة مسيرة الإسلام، فكان الصحابة يواجهونها وهم على يقين تام من التغلب عليها، يرونها شوكة في الطريق ليس غير.

لكن من شأن الجماعات العاملة أن يكون فيها خلاف في وجهات النظر واجتهاد متباين، وأن يندس فيها الضعيف الطامع، والعدو المخرب، فأراد حذيفة أن يحتاط، فقبل النبي ﷺ احتياطه، فحدثه وشرح له، لننقل نحن لدعاة الإسلام اليوم حديثه، وحديث من شرح حديثه من فقهاء العمل، ونتأمل فيما تحقق منه ووعته الأمة تجربة من تجاربها، فنقيس عليه، ونستخلص منه العبر.

قافلة السكينة تتهاذى

ومن طبيعة أنوار الفطنة أنها مستمرة الإشعاع، ولذلك نرى نور الإقلال من الكلام يرسل حزم ضوء هادية أخرى تستهل بسبب ثان يدعو عمر بن عبد العزيز إلى السكوت، فيقول: (إني لأدع كثيرا من الكلام مخافة المباهة)^(١).

وهذا من أخفى الأبواب التي يقتحم منها الشيطان على الداعية، إذ تأتيه بعض البلاغة، سليقة أو تكلفا وتصنعًا، فتعجبه، فيقول من غير نية تعليم أو نصح، فلا يبارك الله بها، ولا يأبه أصحابه لها بالا، فيتعصب لها، ويجد في قلبه شيئا تجاههم يضعف مشاعره الأخوية.

* وتظل مسوغات الصمت الأخرى من بعد هذا تستجلب لها خيارًا آخر، كما استجلبت المهلب وبشرًا الحافي، فيقول التابعي الكبير عطاء بن أبي رباح:

(إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا ثلاثًا:

كتاب الله أن يتلوه.

أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر.

وأن ينطق بحاجته التي لا بد منها).

* ويضرب الحسن البصري - إذ يختار لنفسه الصمت - مثلاً للمفكر، والمهذار يقول فيه:

(كانوا يقولون: إن لسان الحكيم من وراء قلبه، فإذا أراد أن يقول يرجع

إلى قلبه، فإن كان له قال، وإن كان عليه أمسك وإن الجاهل قلبه في طرف لسانه لا يرجع إلى القلب، فما أتى على لسانه تكلم به^(١).

* ويتولى علم السير تعريفنا بحكيم من هؤلاء الذين عناهم الحسن، يعرض كلامه على قلبه، فلا ينطق قبل أن يعد لنفسه جواباً.

اسمه: حاتم الأصم، زاهد قديم رأوه قليل الكلام، فسألوه، فقال: (إني لا أحب أن أتكلم كلمة قبل أن أعد جوابها لله، فإذا قال الله -تعالى- لي يوم القيامة: لم قلت كذا؟ قلت: يا رب: لكذا)^(٢).

* وعد الفضيل بن عياض كثرة الكلام خصلة من ثلاث خصال تقسي القلب، وزاد فجعله مرة أخرى علامة من علامات النفاق إذا اقترن بقلّة العمل، فقال:

(المؤمن قليل الكلام كثير العمل، والمنافق كثير الكلام قليل العمل).

فطلب من حملة القرآن، من أجل ذلك، أن يقفلوا أفواههم إلا من حديث خير، فإن:

(حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو، ولا أن يلهو مع من يلهو، ولا أن يسهو مع من يسهو).

وليس أوعظ من أن يتصور أحدنا نفسه مع أولئك اللاغين المازحين من طلبة الحديث المخالفين لأعراف شيوخهم، والفضيل يشتاط غضبا وينادي:

(مهلا يا ورثة الأنبياء، مهلا يا ورثة الأنبياء، إنكم أئمة يقتدى بكم).

(١) الزهد لابن المبارك/ ١٣١.

(٢) تاريخ بغداد ٨/ ٢٤٥.

وإنها حقيقة يذكرنا بها الفضيل يجب ألا تغيب عن بالنا.
إن مجرد حملنا للقرآن، وطلبنا للحديث يضعنا في مقام القدوة والإمامة،
ولا بد من وفاء حق هذا المقام.

* ويمر بنا طريق الصمت على آخر من الزهاد اسمه:

داود الطائي، زاد فاشترى من الناس بصمته شهادة خير تنطق يوم يسأله
الله، سلمه إياها ابن السماك يوم موته، في وقفة على قبره، حين فرغوا من
دفنه، فناده أمام الجمع المحتشد:

(يا داود:

كنت تسهر ليلك إذ الناس ينامون.

وكنت تريح إذ الناس يخسرون.

وكنت تسلم إذ الناس يخوضون) ^(١).

فاستغفر له من حضر، فهي في يمينه حجة يوم اللقاء، وهي في الكتاب
موعظة لأولى الأبواب تحركهم إلى شراء السلامة من وريث لابن السماك.

* وعلى درب الصمت نفسه سار الجواليقي اللغوي، صاحب إعراب
القرآن، وأحد أعيان ثقات فقهاء الحنابلة ببغداد، فكان:

(طويل الصمت، لا يقول الشيء إلا بعد التحقيق والفكر الطويل) ^(٢).

صمت السندان!

* وتلاه الشيخ العارف عبد القادر الكيلاني، قدوة الحنابلة بالعراق في
القرن السادس، والمربي المستدرك، فقد عرف خبر من تقدمه، ورأى أثر

(١) تاريخ بغداد ٨/ ٣٥٥.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٠٥.

منقبتهم، ثم التفت فرأى واقعا يعث فيه اللهو فسادًا، وبقايا أنصار البدع البوذية وفلول المعتزلة تتربص لاغتنام فرصة عودة إلى التسلط، فصار يركز في تربيته للألوف التي تحضر مواعظه على ضرورة العمل الصامت.

(أريد منكم أعمالاً بلا كلام.

العارف العامل لوجه الله سندان يدق عليه وهو لا ينطق.

أرض يمشى عليها تغير وتبدل وهو أخرس) ^(١).

هكذا، كالأرض المعطاءة الخيرة هو الداعية، تخضر، ويعلو نباتها ويحصد، فينفع الناس؛ منهم الشكور ومنهم الكفور، وهي ساكنة راضية.

وكسندان الحداد، كتلة صلب، تنزل عليه المطرقة مرة بعد مرة، شديدة موجعة، وهو هادئ، قانع بما يحمل للناس من خير ونفع.

أو: هو كغلام الطبيب جالينوس، فقد كان جالينوس لا يعلم أحدًا، ولا يوظف مساعدًا، خوفًا من شيوع أسرار طبه، فتظاهر غلام بالتخارس والسذاجة، فقبله جالينوس واختاره مساعدًا، حتى حفظ علمه على غفلة من أستاذة، فنطق.

(أما سمعت بغلام جالينوس الحكيم كيف تخارس وتباله وتساکت حتى حفظ كل علم عنده؟) ^(٢).

وكذلك العلوم والحكم، تتعزز وتتأبى، تريد من يتملق لها بالوداعة.

* فقارن بين أرض صامته، وسندان قانع صابر، وبين صوت أزعج الأسد، فأرسل كليله ودمنة يستجلبان الخبر، فوجداه طبلا معلقا في شجرة تحرك الريح غصنا فيقرعه، فشقاها بأظفارهما، فنام ملك الغابة مستريحًا!!

(١) الفتح الرباني ٣٨، ٤٦.

(٢) الفتح الرباني ٣٨، ٤٦.

* وليكن شعارك أن: لا لغو، ولا أصوات، بل استمتاع بأضواء بعد أضواء.

فالتفت يمينا الآن، تجد مصباح:

النور الحادي عشر، يلمع بفضائل:

* الإمساك عن الجدل

ويقال له أيضا: المرء، وهو من لوازم إقلال الكلام وناتجه، ومن مكملاته التي تتم زينه.

فالجدل خلق رديء كثير السوء، وتتجسم آثاره في الجماعات بشكل أبرز مما يلحق الأفراد منه، فإن الفرد قد لا يتجاوز أن يجد ضيقا في صدره إن تجادل مع صاحب له بمعزل وعلى انفراد، ولكن الجماعة التي يتجادل فيها اثنان، على مسمع من البقية، تحرم من الخير المقرب منها، ولو لم تتعدد فيها جهات الجدل وأعداد المتجادلين، كأن من طبيعة الخير أن يجفل من قليل الصخب، ويأبى الدخول على قوم لا يستقبلونه بسكون، ولو كانوا صالحين.

ففي صحيح البخاري:

(أن رسول الله ﷺ خرج يخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، وأنه تلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرا لكم، التمسوها في التسع والسبع والخمس) ^(١).

والملاحظة: هي المنازعة والمخاصمة التي تتضمن جدلا، وفي صحيح مسلم أنها كانا: (يحتقان) أي يدعي كل منهما أنه المحق دون صاحبه.

وتعبيره ﷺ بعسى من باب التأويل بالمستحب، إشارة إلى ما سيكون من زيادة بذل المجهود في التماسها، وإلا فإن في الجزم بتعيين ليلة القدر من الخير للأمة الإسلامية في جميع أجيالها ما هو ظاهر لمن عرف قيمة الدعاء.

ولمثل هذا السلب جعله التابعي مسلم بن يسار جهلا يجد الشيطان خلاله مجالا، فقال:

(إياكم والمراء، فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته).

بل هي أكثر من زلة وأكثر من سوء، فإن الإمام الأوزاعي قد أحصاها فوجدها خمس زلات قبيحات تزيد طرد الخير قبحًا، فقال:

دع من الجدال ما:

يفتن القلب

وينبت الضغينة

ويحفى القلب

ويرق الورع في المنطق

والفعل

وهذا إثقال واضح لكفة الشمال من ميزان المتجادل ينبي عن خسارته والعياذ بالله، خسارة يصعب معها الرجاء إذا اقترنت بلجاجة وإعجاب، إذ تتم حينذاك، كما رآها التابعي بلال بن سعد فقال:

(إذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته).

قول خبير ليس بكاذب ولا مبالغ.

والمخرج من ذلك سهل بسيط ليس بالصعب عند الموفق، لا يستدعي أكثر من إغلاق وفتح.

يغلق ويقفل باب الجدل، ويرمي بالمفتاح بعيداً، ثم في حركة سريعة يفتح باب العمل، ليجد نفسه في إطلاله بديعة تأخذ بمجامع فؤاده على ألوان متموجة تفيض من مشكاة:

النور الثاني عشر، وينبعث بشعاع: المبالغة في الصدق يوم الفتنة

فإنه لا طريق أقرب من الصدق.

وحين تاب الله على كعب بن مالك رضي الله عنه لما افتتن فتخلف في الثلاثة الذين خلفوا، قال:

(يا رسول الله: إن الله إنما نجاني بالصدق، إن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت) ^(١).

فغدا الصدق من يوم اختاره كعب سنة لتوبة المفتنين، وكفاية لاحتياط الحذرين.

صدقا يتجاوز مقداره العرفي الذي تدين بفضيلته كل الأمم حين يتعامل أفرادها في أسواقهم وزيجاتهم، ويتعداه، ليكون نوعا من الحساسية الإيمانية تستشعر الرقابة الربانية، حين ترسل الفتن المتربصة لغزونا من يوسوس في صدورنا ويشجعنا على الانتصار لنفوسنا عند الخلاف بزيادة كلمة نتأول في إضافتها أنها تفسر كلام المخالف، أو بحذف كلمة بتأويل مقارب، أو باختيار لهجة لرواية الكلام تصرفه عن مقاصده الظاهرة وتحمله ما لا يحتمل من المعاني المعيبة.

فإن انضاف إلى مثل هذه الكذبة في الزيادة، أو النقصان، أو لهجة الرواية نشر لها في المجالس، وسفر رسل صاحبها بها في الأقطار والأمصار خيف على صاحبها أن يكون ذاك الرجل الذي رآه النبي ﷺ في رؤياه المرعبة المخيفة لما أتاه آتيان فانطلقا به، فمرا به:

(على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه، فيشر شر شذقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى.

قال: قلت سبحانه الله! ما هذا؟

قالا:

(إنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق) ^(١).

ورسول الله ﷺ لا يرى إلا حقاً.

فليحذر صاحب الهوى أن يكذب كذبة ينصر بها هواه إلى حين سريع الزوال، فتبلغ كذبه الآفاق، ويحملها البريد، وتنزل بها حروف المطابع، فتزل بها أقدام، فيفعل الزبانية بشذقه ومنخره وعينه مثل ما فعلوا بهذا الذي رآه النبي ﷺ.

ولمثل هذا كان عقلاء الناس دوما يرون للصدق مكانة أرفع من مكانته التي يراها له العامة، مثل إياس بن معاوية بن قرة الذي هو من سادة الثقات ودعاة العلماء، فإنه كان يقول:

(امتحن خصال الرجال، فوجدت أشرفها: صدق اللسان) ^(١).

وإن صدقا في مساومة على شراء طعام في سوق لهوى أهون من أن يحفل به هذا النابغة هذا الاحتفال، لكنه كان يريد معنى وراء ذلك، يعرفه الرجال.

صدقا عرفه الحافظ المحدث إسحاق بن راهوية الخنظلي، فتناوله، فأدى به إلى الإمامة وسيادة الآفاق، فقال تلميذه الإمام الدارمي:

(ساد إسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه) ^(٢).

وثقات المحدثين الصادقين من أهل زمانه كثير عددهم ألوف بعد ألوف، لكنها المبالغة في الصدق سودت إسحاق عليهم.

والقلب الحي يرى في توبة كعب وطريق إسحاق مواعظا ودعوة للاقتداء.

وللمفتون ما يختار.



(١) تهذيب التهذيب ١/ ٣٩١.

(٢) طبقات الشافعية ٢/ ٨٦.